صفحة خالدة

الأستاذ شفيق جبري

في الجزء الثالث من يتيمة الدهر صفحة في التجديد كتبها أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المقيم ، قال أبو الحسين : « ومن ذا حظر على المتأخر مضادّة المتقدّم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الأول للآخر ، وهل الدنيا إلاّ أزمان ، ولكل زمانٍ منها رجال ، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلاّ خطرات الأوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم، ووقفها على وقتٍ محدود ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتّى يؤلّف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك رأيه وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة . . . » إلى أن قال : « ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ، ولذهب أدب غزير ، ولضلّت أفهام ثاقبة ، ولكلّت ألسنة لسنة ، ولما وشّى أحد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ، ولمجّت الأسماع كل مردّدٍ مكرّرٍ ، وللفظت القلوب كل مرجّع ممضّغ » .

صفحة خالدة في أدبنا تدلّ على امتداد فكر صاحبها ، وعلى إيمانه الشديد بانتقال الحياة من طور إلى طور على تراخي الأحقاب ، فهو عدوّ الجمود ، وهو نصير التجديد ، ولا ريب في أن الجمود إنما هو عنوان الموت ، وأنّ التجديد إنما هو دليل الحياة ، وليس بي حاجة إلى إيضاح شيء ممّا جاء ذكره في قول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن فارس ، فقد قال كلّ شيء ، وأوضح كلّ شيء ، فلم يترك مجالاً لقائل ، كما أنه لم يترك مجالاً لإيضاح ، وحرام عليّ تجزئة هذه الصفحة واختصار أفكارها ، فبلاغتها قائمة بتناسقها .

قد يخطر على البال أن ابن فارس قد أهمل شيئاً لم يشر إليه ، ماهو هذا الشيء ، قد يخطر على البال أن ابن فارس لمّا أشار إلى التجديد في الأدب لم يشر إلى المحافظة على روح اللغة في هذا التجديد ، ولكن ابن فارس أعقل من أن يفوته هـذا الأمر ، وإذا كان لم ينبّه عليه فلأنه يعتقد على ما نرى أن هـذه المحافظة إنما هي من بدائه الأمور ، فلولا المحافظة على روح اللغة في التجديد لما كان لهذا التجديد معنى ولضاع الأدب واللغة ، فليس معنى التجديد أن يخلق كل عصرٍ من العصور لغةً خاصة وأدباً خاصاً ، وأن يخرج بهذه اللغة وبهذا الأدب عن روحها وجوهرهما ، فلو كان الأمر كذلك لتعاقبت العصور دون أن يفهم كلّ عصرٍ لغة العصر الذي تقدّمه والأدب الذي جاء قبله .

إذا رجعنا إلى لغتنا وإلى أدبنا في قديم عصورهما وجدنا أن اللغة لم تثبت على طورٍ من الأطوار ، وإن الأدب لم يحافظ على شكل من الأشكال ، فاللغة من بدء الإسلام ظهرت أطوارها التي دخلت فيها ، وهذا موضوع مديد لا يمكن حصره في مقالٍ مثل هذا المقال ، فالإسلام قد حوّل ألفاظاً عن معنى إلى معنى ، ثم حدثت علوم فاضطروا إلى وضع ألفاظٍ لها كما وضعوا ألفاظاً للنحو والفلسفة وغيرهما ، وما يقال في اللغة يقال في الأدب ، فالشعر لما انتقل من مضارب البدو في جاهليته إلى قصور الخلفاء في بغداد وغيرها اضطر أصحابه في الحضر إلى أن يأتوا بصور تخالف صور البدو ، وهذا أمر نشهده في شعرائنا لا يحتاج إلى برهان عليه .

لكنّ الشعر لما انتقل من أفق إلى أفق حافظ على روح اللغة وعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جوهرها ، فلم يأت أصحابه بصور غامضةٍ ولا أتوا بلغةٍ تنفر عنها أذواقنا ، وإذا كان المجال لا يتّسع للتبسط في هذا السبيل فلا أقلّ من الاستشهاد بشاعر طبع شعره بروح عصره فكان فيه تجديد من جهة وكان فيه محافظة على روح اللغة وجوهرها من جهة ثانية ، ماذا فعل البحتري في شعره ، ليس موضوعي الإتيان على خصائص لغة البحتري في إدخال شعره في طورٍ جديد يختلف عن الأطوار التي كان الشعر فيها على أيام الجاهلية وبعدها ، إنما أرى أنه لا بدّ من الإشارة إلى شيء من يسير من هذه الخصائص ، فقد رجعت إلى دفاتري التي دوّنت فيها بعض روح اللغة التي كان يستعملها البحتري فوجدت أنه رزق قدرة غريبة على التأليف بين الألفاظ من ذلك مثلاً قوله : شباب الدنيا ... بشاشة النعم ... بهجة الخلافة ، ومثل هذه القدرة نجدها في الصفات التي يطلقها على الموصوفات ، مثل قوله : القصور البيض . . . البوادي السود . . . فقد ينفخ في الموصوفات روحاً تدخل الحياة عليها ، وربما مررنا ببعض شعره بصفةٍ يخيّل إلينا أنها من توليد العصر الذي نعيش فيه مثل قوله : همّة مجنونة .

والخلاصة أن البحتري لما أدخل شعره في طور جديد حافظ على روح اللغة في هذا الطور ، ولم يخرج عن محاسن ذوقها ، فقد مرّ عليه أكثر من ألف سنة ونحن لانزال نرى أن لغته كأنّها من لغة هذا العصر ، فلا ننفر عن صفاته التي أطلقها على الموصوفات ، ولا نستغرب تأليفه بين الألفاظ ، فهو لم يأت بشيء لم يفهمه عصره ولا فهمته العصور التي جاءت بعده ، فقد نمرّ في أيامنا ببعض شعرٍ لا نفهمه نحن ، ولا تفهمه العصور في الآتي وهذا هو موت اللغة بأجمعها .

إنا لا نستطيع أن نقف في سبيل قانون من قوانين الحياة بلغ من القوة كلّ مبلغ ، إنا لا نستطيع أن ننكر أن الحياة تتجدّد من زمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى زمنٍ ، وإن هذا التجديد يستوجب لغةً خاصة وصيغة خاصة ، ولكن الذي ننكره أن تكون هذه اللغة غريبة عن أهلها وأن تكون هذه الصيغة غريبة عن أدبنا ، ومعنى الغرابة في هذا القول ، أن تكون اللغة وصيغة الأدب فاسدين لا نفهمها نحن ولا يفهمها من يأتي بعدنا .

أذكر عبارة اطلعت عليها في كتاب وقع عليه نظري عرضاً في مكتبة في مدينة « وليمسبورغ » في أميركة ، فقد قال أحد أعضاء الكونغرس : إنا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين الذين يسرقون ويقتلون ، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يفسدون اللغة !

مثل هذا القول صدر في بلاد تشيع في أكثرها المعامل والآلات والدخان وغير ذلك من الحضارة المادية ، فما قولنا في بلادٍ مثل بلادنا لم تحتفظ من ماضيها إلاّ بلغتها وأدبها ، أفيجوز أن يقضى على هذه اللغة وهذا الأدب !.

« شفيق جبري »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net